

# القرآن وصناعة إرادة الإنسان

د. عبدالكريم حامدي

لقد استوقفني هذا الموضوع وأنا أطّالع افتتاحية مجلة الوعي الإسلامي في أحد أعدادها الأخيرة، حيث أشار رئيس التحرير، إلى أهمية الإرادة في صنع مستقبل الإنسانية عامة وال المسلمين خاصة، فعزّمت على تحرير مقال في هذا الشأن يبرز مفهوم الإرادة، وما علق بها من مفاهيم خاطئة أدت بال المسلمين إلى الجدال العقيم، والصراع الفلسفـي المقيـت، والتـنابـز بالألقـابـ المـهـينـ، الذي أعاد العـقلـ عن التـفـكـيرـ وأغلـقـ بـابـ الإـبـداعـ، وـقـيـدـ العـزـائمـ وـثـبـطـهاـ عـنـ النـهـوـضـ، بـتـفـسـيرـاتـ خـاطـئـةـ لـإـرـادـةـ الـإـنـسـانـ وـمـنـافـيـةـ لـروحـ الشـرـيـعـةـ وـتـعـالـيمـ الدـيـنـ.

كتـولـهـ «ـيـرـيدـ اللـهـ بـكـمـ الـيـسرـ وـلـاـ يـرـيدـ بـكـمـ الـعـسـرـ»ـ (ـالـبـقـرـةـ:ـ ١٨٥ـ)، وـقـولـهـ «ـمـاـ يـرـيدـ اللـهـ لـيـجـعـلـ عـلـيـكـمـ مـنـ حـرـجـ وـلـكـ يـرـيدـ لـيـطـهـرـكـمـ وـلـيـتـمـ نـعـمـتـهـ عـلـيـكـمـ»ـ (ـالـمـائـدـةـ:ـ ٦ـ)ـ وـقـولـهـ «ـيـرـيدـ اللـهـ لـيـبـيـنـ لـكـمـ وـيـهـدـيـكـمـ سـنـنـ الـذـيـنـ مـنـ قـبـلـكـمـ وـيـتـوـبـ عـلـيـكـمـ»ـ (ـالـنـسـاءـ:ـ ٢٦ـ)ـ وـقـولـهـ «ـإـنـماـ يـرـيدـ اللـهـ لـيـذـهـبـ عـنـكـمـ الرـجـسـ أـهـلـ الـبـيـتـ وـيـطـهـرـكـمـ تـطـهـيـرـاـ»ـ (ـالـأـحـزـابـ:ـ ٣٣ـ)ـ فـهـذـهـ النـصـوصـ وـأـمـاثـلـهـاـ تـشـيرـ إـلـىـ هـذـهـ النـوـعـ مـنـ إـرـادـةـ الـإـلـهـيـةـ، وـأـنـهـ سـبـحـانـهـ لـاـ يـحـبـ لـعـبـادـهـ الذـنـوبـ وـالـمـاعـاصـيـ، وـلـاـ الضـلـالـ وـالـكـفـرـ، وـلـاـ الـعـسـرـ وـالـضـيـقـ، وـلـاـ يـأـمـرـ بـهـاـ وـلـاـ يـرـضـاـهـاـ، وـإـنـ كـانـ اللـهـ تـعـالـىـ شـاءـهـاـ خـلـقاـ وـإـيـجادـاـ، بـلـ يـرـيدـ لـعـبـادـهـ وـيـحـبـ لـهـمـ الـطـهـرـ، وـالـيـسـرـ، وـالـتـوـبـ وـالـهـدـاـيـةـ إـلـىـ أـقـوـمـ الـسـنـنـ وـأـحـسـنـ السـبـيلـ.

وـهـنـاـ يـجـبـ التـنـبـيـهـ إـلـىـ أـمـرـ بـعـرـفـتـهـ تـزـوـلـ إـشـكـالـاتـ كـثـيرـةـ تـعـرـضـ مـنـ لـمـ يـحـطـ عـلـمـ بـهـاـ كـمـ يـقـولـ اـبـنـ الـقـيـمـ رـحـمـهـ اللـهــ وـهـوـ أـنـ إـرـادـةـ اللـهــ

## النصوص المفسرة بتآويلات غريبة أدت بالعقل إلى التيه في مسالك وهمية وخیالات مصطنعة

أنـ أـنـصـحـ لـكـمـ إـنـ كـانـ اللـهـ يـرـيدـ أنـ يـغـوـيـكـمـ»ـ (ـهـودـ:ـ ٣٤ـ)ـ وـقـولـهـ «ـوـلـوـ شـاءـ اللـهـ مـاـ اـفـتـتـلـوـ وـلـكـنـ اللـهـ يـفـعـلـ مـاـ يـرـيدـ»ـ (ـالـقـرـاءـ:ـ ٢٥ـ)ـ وـقـولـهـ «ـوـلـوـلـاـ إـذـ دـخـلـتـ جـنـتـكـ قـلـتـ ماـشـاءـ اللـهـ لـاـ قـوـةـ إـلـاـ بـالـلـهـ»ـ (ـالـكـهـفـ:ـ ٣٩ـ).ـ وـهـذـهـ إـرـادـةـ الـإـلـهـيـةـ يـخـرـجـ عـنـهـاـ أـحـدـ مـنـ الـخـلـقـ أوـ الـكـائـنـاتـ، فـكـلـ الـحوـادـثـ الـكـوـنـيـةـ الـعـلـوـيـةـ وـالـسـفـلـيـةـ دـاخـلـةـ تـحـتـ أـمـرـهـ وـمـرـادـهـ وـمـشـيـتـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ، وـيـشـتـرـكـ فـيـهاـ الـمـؤـمـنـ وـالـكـافـرـ، وـالـبـرـ وـالـفـاجـرـ، وـالـمـطـيعـ وـالـعـاصـيـ، وـأـوـلـيـاءـ اللـهـ وـأـعـدـاؤـهـ، وـأـهـلـ جـنـتـهـ وـأـهـلـ تـارـهـ.ـ وـهـذـهـ إـرـادـةـ لـاـ يـتـخـلـفـ مـرـادـهـ قـطـ، وـلـاـ خـيـرـ لـأـحـدـ مـعـهـ قـطـ، وـهـيـ إـرـادـتـهـ تـعـالـىـ فـيـ الإـيـجادـ وـالـإـعـدـامـ، وـالـتـوـفـيقـ وـالـخـذـلـانـ، وـالـعـطـاءـ وـالـمـنـعـ.ـ أـمـاـ إـرـادـةـ الشـرـعـيـةـ فـهـيـ التيـ تـتـضـمـنـ الـمـحـبـةـ وـالـرـضـىـ، وـقـدـ دـلـتـ عـلـيـهـاـ نـصـوصـ كـثـيرـةـ،

آيـاتـهـ، نـجـدـ أـنـ الـقـرـآنـ، يـتـحدـثـ عـنـ نـوـعـينـ مـنـ أـنـوـاعـ الـإـرـادـةـ، هـمـاـ:ـ إـرـادـةـ الـإـلـهـيـةـ، وـإـرـادـةـ الـإـنـسـانـ.ـ الـإـرـادـةـ الـإـلـهـيـةـ وـنـعـنـيـ بهاـ مـشـيـثـةـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـ تـصـرـفـاتـهـ، وـهـيـ قـسـمـانـ:ـ إـرـادـةـ كـوـنـيـةـ، وـإـرـادـةـ شـرـعـيـةـ.ـ فـالـإـرـادـةـ الـكـوـنـيـةـ هيـ الـمـشـيـثـةـ الشـامـلـةـ لـجـمـيعـ الـمـوـجـودـاتـ، الـتـيـ تـحـكـمـ الـخـلـقـ وـالـكـوـنـ، وـتـسـيـرـ عـالـمـ الـإـنـسـانـ وـالـحـيـوانـ وـالـنـبـاتـ وـالـجـمـادـ، وـسـائـرـ الـعـوـالـمـ مـاـ خـفـيـ مـنـهـاـ وـمـاـ ظـهـرـ، مـاـ عـظـمـ مـنـهـاـ وـمـاـ صـفـرـ، بـمـاـ يـحـقـقـ الـغـاـيـةـ مـنـ الـوـجـودـ وـالـحـكـمةـ مـنـ الـخـلـقـ.ـ وـقـدـ دـلـتـ عـلـىـ هـذـهـ إـرـادـةـ نـصـوصـ قـرـآنـيـةـ كـثـيرـةـ، كـوـلـهـ تـعـالـىـ «ـفـمـنـ يـرـدـ اللـهـ أـنـ يـهـدـيـهـ يـشـرـحـ صـدـرـهـ لـإـسـلـامـ وـمـنـ يـرـدـ أـنـ يـضـلـهـ يـجـعـلـ صـدـرـهـ ضـيقـاـ حـرـجاـ»ـ (ـالـأـنـعـامـ:ـ ١٢٥ـ)ـ وـقـولـهـ «ـوـلـاـ يـنـفـعـكـمـ نـصـحـيـةـ إـنـ أـرـدـتـ

معنى الإرادة: جاء معنى الإرادة في المعاجم اللغوية دالا على العزم والنية والتوجه نحو الفعل والعمل، فهو انبعاث قلبي جاذب يشحّن عزيمة الإنسان على ترجمة أفكاره وخططه والانتقال بها من مجرد النية وال فكرة إلى الفعل والعمل والسلوك.

أنواع الإرادة: بالرجوع إلى القرآن الكريم واستقراء مفردات الإرادة في ضوء

\* أستاذ الفقه المقارن في الجزائر



صريح الدلالة على  
أن أخطاء الإنسان  
وما يقع فيه من شرور

ومفاسد مختلفة هي من  
كسب نفسه، ومن صناعة  
يده، ويؤكد ذلك قوله «ظهر  
الفساد في البر والبحر بما  
كسبت أيدي الناس» (الروم:  
٤١) فالمفاسد الواقعة في  
المجتمع من ظلم، وبطش،  
وقهر واستبداد، وجرائم مالية  
واقتصادية، وعدوان على  
القيم والأعراض والأنفس هي  
من صنع الإنسان وكسبه.

إن القول بـأن الإنسان  
محبوب على أفعاله وتصرفاته  
 وأنه مسلوب الإرادة، يتناقض  
مع ما صرّحت به التصوص  
القرآنية، كما أنه لا يتحقق مع  
قانون العقاب والجزاء، إذ من  
المعلوم أنَّ المرء لا يعاقب إلا  
على ما جنت يداه واقتربت  
جوارحه، ومن ثم اتفقت كلمة  
الفقهاة على أنَّ المكره لا  
يؤخذ على تصرفاته تحت  
الإكراه؛ لقوله ﷺ «رفع عن  
أمتى الخطأ والنسيان وما  
استكرهوا عليه» فالمكره لما كان  
مسلوب الإرادة، خرج من دائرة  
التجريم والعقاب، وهذا القانون

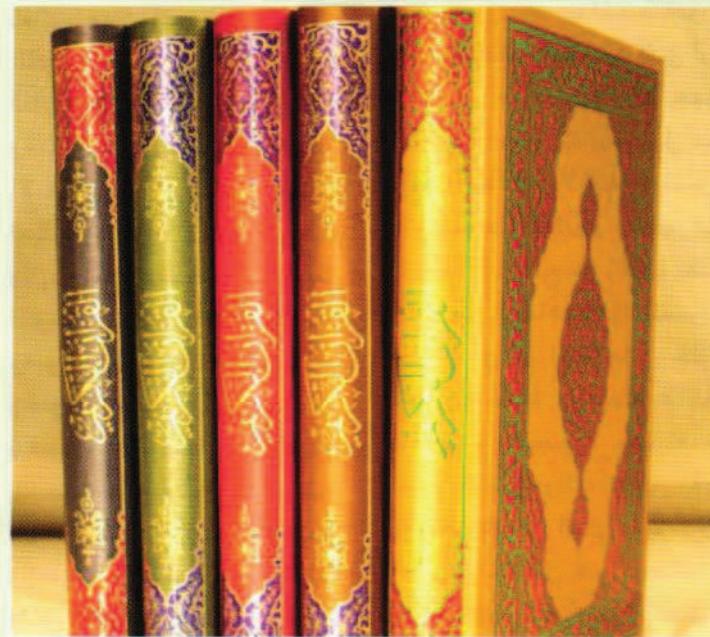
في حين ذهب المحققون  
من السلف والخلف إلى أنَّ  
الإنسان حرٌّ مختار، لا جبر  
عليه ولا سلطان، يفعل ما  
يريد؛ للأدلة الآتية «ونفس  
وما سواها فألهما فجورها  
وتقوها قد أفلح من زُكاها وقد  
خاب من دسّاها» (الشمس:  
١٠-٧) أي أنَّ الله تعالى خلق  
النفس مسوأةً ومعتدلة قابلة  
للتحمّل والفساد، ومستعدة  
للخير والشر، والله تعالى زودَ  
الإنسان بالعقل الذي يميز بين  
الحق والباطل في العقائد،  
وبين الخير والشر في الأفعال،  
وأعطاه القدرة على الاختيار  
والفضيل والتربيحة والتمييز  
بين الضار والنافع والصالح  
والطالع. وقال سبحانه «إنا  
هديناه السبيل إما شاكراً وأما  
كفوراً» (الإنسان: ٢) أي هدیناه  
وأرشدناه إلى طريق الهدى  
والضلال، والحق والباطل،  
والخير والشر، وأعطيته  
وسائل الإدراك والتمييز بين  
مختلف السبل ليختار ما شاء  
له من ذلك دون إكراه ولا قسر  
ولا جبر. وقال «من عمل  
صالحاً فلنفسه ومن أساء  
 فعلها وما ربك بظلم للعبيد»  
(فصلت: ٤٦) ففي الآية إسناد  
العمل الصالح والعمل السيئ  
إلى الإنسان وحده دون سلطان  
آخر يأمره أو يجره على الفعل  
أو عدمه، وفي الآية إشارة إلى  
أنَّ الله عادل لا يظلم الناس،  
فلو أجبرهم وعاقبهم على  
ذلك من غير حرية و اختيار  
لكان ذلك ظلماً لهم. ويقول  
«وما أصابكم من مصيبة  
فبما كسبت أيديكم ويعفو عن  
كثير» (الشورى: ٣٠) فالنّص

عام في التصرّفات والتکاليف  
الشرعية والمدنية. فكيف  
يستقيم القول أنَّ الإنسان لا  
إرادة له على تصرفاته في  
الدنيا، وأنَّه يعاقب عليها يوم  
القيمة؟

واسمع إلى كلمة الإمام  
الشعراوي، إذ يقول «الإسلام  
لا يريد قوالب تخضع، ولكنه  
يريد قلوبًا تخشع، والقوة التي  
تفرض إنما تتحكم في القلب  
فقط، ولكنها لا تتحكم في  
القلب أبداً، فمن الممكن أن  
نكره إنساناً على عمل يعمله،  
وأن نجبره على أن يقوم  
بذلك العمل بقلبه وحركته  
وعضلاته، ولكن ليس من  
الممكن أن نقنع قلبه أن يعتقد  
 شيئاً: لأن العقيدة هي الشيء  
الذي لا يمكن الإكراه عليه». أي  
أن الإكراه قد يكون  
على أفعال الجوارح الخارجية،  
وهذا أمر ممكن وإن كان  
الإسلام لا يرغب فيه ولا يأمر  
به إلا إذا كان لمصلحة إكبار  
المدين على سداد الدين، أما

**هذا النوع الثاني من الإرادة،**  
يتعلّق بـمشيئته الإنسانية في  
ال فعل وعدم الفعل، في  
الحركة والسكن، في الإقدام  
والإحجام، في البذل والعطاء  
وفي البخل والشح، في الجد  
والاجتهد وفي الكسل والعجز  
والخمول، في الكفر والإيمان،  
في الطاعة والعصيان، في  
التفكير والاختراع والإبداع  
وفي التقليد والجمود، في  
الحرية والانعتاق وفي التبعية  
والانهزام.

**حرية إرادة الإنسان:**  
الإنسان حرٌّ في إرادته  
وتصرفاته، وقد ضلت فرقه  
من المسلمين قدّماً ما أدّعى  
أنَّ الإنسان لا إرادة له، وأنَّه  
كالرّيشة في مهب الريح



من غير جهد ولا كد، بل تولد بالعمل والسعى الدؤوب، من ذوي الهمم والإرادات الجادة الصادقة، التي تفتح الصعاب والعقبات، كما قال تعالى «فلا تفتح العقبة وما أدرك ما افتحت العقبة» (البلد: ١١).

والنصوص حافلة باتخاذ الأسباب في مختلف شؤون الحياة الدينية والدنيوية، يقول تعالى «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُسْتَخْلِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفُ الظِّنَّةَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِمَكَنْنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خُوفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشَرِّكُونَ بِي شَيْئًا» (التور: ٥٥) إن الاستخلاف في الأرض والتَّمْكِين له وذهب ما تلاقىه الأمة اليوم من خوف مرهون بالإيمان الصحيح، والعبادة المستقيمة والعمل الصالح، وما ذلك على الله بعزيز، وأخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

## محسوسة مسبقاً وأولاً!

### مقوّمات الإرادة: إذا كانت

الإرادة هي سر النجاح ومصدر القوة والتَّفُّقُ والسلطان، وأن ضعفها هو مصدر الضعف والشقاء والهزيمة، فكيف تصنع تلك الإرادة، وما السبيل إلى تقويتها؟

**أولاً: الإيمان بالله:** إن الإيمان بالله تعالى وتوحيده حق التوحيد، هو أكبر رافد لصناعة الإرادة وتحريرها من الشك والوهم والخوف الذي تصنعته الأفكار الخرافية، والحلول الجاهزة، والنتائج المسبقة، التي تقيد الإنسان وتكتُّل انطلاقته نحو العمل. والإيمان هو الذي يبعث الإرادة من سباتها، ويوقظها من غفلتها، ويحررها من قيودها، ويحرّكها نحو التفاعل بإيجابية ومعقولية مع معطيات الواقع.

والإيمان هو الذي يبعث روح العمل في جسد الأمة ف تكون الانطلاقة والنهضة والنصر المادي والمعنوي.

ولنا في القرآن الكريم نماذج من أولي العزم والإيمان الذين صنعوا بالإرادة ما عجزت عنه القوة المادية والعددية، قال تعالى «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَمَةً قَاتَلَتْ لَهُ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (النحل: ١٢١) لقد كان إبراهيم عليه السلام فرداً، لكنه كان أمّةً من جهة القوة والإرادة، بفضل الإيمان والتوحيد والحنينية التي مكنته من التفوق والانتصار.

**ثانياً: العلم الدقيق:** لا يشك أحد ولا يماري إلا

الإكراه على أفعال القلوب فهذا غير ممكن أبداً.

إن القول بحرية الإرادة هو الذي يتتفق مع قانون الخلق والإيجاد، ومقاصد الحياة، القائمة على العبادة والخلافة، فالعبادة غاية الخلق في قوله «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا يَعْبُدُونَ» (الذاريات: ٥٦) ولا تتحقق هذه الغاية على أكمل وجه إلا إذا كان الإنسان حراً في تصرفاته القولية والفعلية، كما أن الخلافة غاية أخرى ثابتة في قوله تعالى «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ» (الأنعام: ١٦٥) ولا يمكن أن تقوم وتتحقق أهدافها ومقاصدها إلا بحرية العقل والتفكير، وحرية العمل والإرادة.

**علاقة العلم الإلهي بالإرادة الإنسانية:** وقد ظن البعض من ضعاف الإرادة أنّ أفعال الإنسان وتصرفاته محكومة النتائج والعواقب، لا قبل له بتغييرها أو تبديلها، ولا طاقة له على مقارعتها وتجاوزها، مستدلين بظواهر بعض النصوص، كقوله تعالى «مَا أَصَابَ مِنْ مَصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُبَرَّأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» (الحديد: ٢٢). فهم يفهمون من الآية أن كل شيء قد كتب وقدر في اللوح المحفوظ، فيما الفائدة حينئذ من العمل، وما جدوه التنافس والتسابق ما دامت النتائج